الفصل الأول

التعارف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله والحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله.

أقدم إليكم هذا الكتاب المعنون بـ "فجر أمة". وأقصد بهذا العنوان الفترات التي أفرزت فيها شمس الإسلام شخصيات استطاعت بإسلامها أن تضيء الدنيا وتبرهن على عظم قدر الإسلام بما يتيح له أن يكون دائما في الصدارة .

صلاح الدين... البطل المغوار... والشاب المنتظر

وقد تم اختيار شخصية صلاح الدين الأيوبي كأول شخصية يتم إلقاء الضوء عليها .

وبلا شك، إن الحديث عن صلاح الدين يعود بنا إلى صفحة مضيئة من صفحات تاريخنا. ولكن سرعان ما نصاب بحسرة عند العودة إلى الأمجاد التي عاشتها الأمة في وقت من الأوقات ومقارنتها بما نحن عليه الآن. وبالتالي قد يتساءل البعض " لِمَ أنغمس في قراءة كتاب مثل هذا؟ ماذا عساه أن يزيدني كتاب عن صلاح الدين الأيوبي ؟ لا داعي لزيادة ما نحن غارقون فيه من إحباط ! ". في حين يكتفي البعض الآخر بعدم اهتمامه بالتاريخ على وجه العموم. وعلى أي حال، ليس الغرض من هذا الكتاب دراسة التاريخ، ولا تقديم فقه ديني بحت، ولا سرد

أحداث وتواريخ تثقل كاهل القارئ. وإنما كل أملي أن يبزغ فجر الأمة من جديد مثلما بزغ من قبل. بالفعل، نحن نشعر بمرارة الظلمة الشديدة المحيطة بنا، وبالليل الدامس الذي يحاصرنا من كل اتجاه. متى تسطع الشمس؟ ومتى يبزغ فجر هذه الشمس؟ أعتقد أنه ليس لدينا أدوات تمكننا من إعادة الفجر من جديد سواكم أنتم قراء هذا الكتاب. حقيقة، أنتم الفجر الذي ننتظره منذ أمد طويل. وفى الواقع، تثير هذه المقدمة تساؤلات ومواقف كثيرة وقصص وروايات، المقصود منها إثارة فضولكم حتى يتضح مدى احتياجنا للقراءة والتعلم، وخاصة بالنسبة لشباب القراء الذين يمثلون الشريحة المهمة والتي تقوم عليها الأمة ككل.

صلاح الدين القرن الحادي والعشرون

ولذلك، فمن الجدير بالذكر أن يعرف هؤلاء الشباب أن صلاح الدين لم يكن قد اكتسب شهرته بعد حتى سن الثلاثين، ولا كان يخطر على بال بشر أن يتحول هذا الرجل إلى قائد مسلم ذائع الصيت وأن يستطيع قلب الأوضاع رأسا على عقب! وعليه، فيا شباب العشرين ربيعا، وأيضا من هو أكثر أو أقل من ذلك قليلا، فإنه بإمكان أحدكم أن يشحذ همته، بل أن يصبح بالفعل صلاح الدين هذا القرن. بكل تأكيد، أنت أيها القارئ تستطيع ذلك فالحديث موجه إليك! ولكن بالطبع عليك أن تتعرف على الملابسات التي جعلت من ذلك الرجل صلاح الدين. هل يجول بخاطرك أن توجه صلاح الدين لله سبحانه وتعالى لم تعتره بعض فترات الضعف مقابل فترات الالتزام الغالبة؟! بالله عليك، لم يكن صلاح الدين يوما من الأيام أسطورة، بل كان رجلا مثلى ومثلك، محاط بأناس يساعدونه ويشدون من أزره حتى كتب الله له تحقيق الانتصارات واحدا تلو الآخر. فإذا راودتك نفسك للوصول إلى مرتبته وانجاز ما أنجزه، فلا بد لك إذن من تصفح أبواب هذا الكتاب.

أهمية الاستفادة من التغييرات الحياتية المحورية

ومن المهم بمكان الانتباه إلى الحدث الضخم الذي غير مسار حياة صلاح الدين وهو في الثلاثين من عمره. فبدلا من كونه مجرد يوسف بن أيوب أصبح لا ينادى إلا بلقبه صلاح الدين الأيوبي، صاحب السيرة العطرة المستمدة من انتصارات حطين وعودة المسجد الأقصى ! وما أدراك أن يكون ذلك الحدث قد وقع في حياتك أنت أيضا، أو لعله يقع في أي وقت؟ المهم تستفيد منه وأن يكون ذات الحدث عونا لك على بلوغ ما كتبه الله سبحانه وتعالى لك من مراتب ودرجات. ولا زالت الفرصة متاحة شريطة أن تسأل نفسك " لماذا لا أصير مثل صلاح الدين؟ لماذا ينبغي أن يكون صلاح الدين هذا العصر شخصا آخرا غيري؟". ولعلك تستطيع بذلك مواجهة نفسك دون النظر إلى آخرين. ثق في ذاتك، ثق في قدراتك، وعندها سوف تحقق ما تصبو إليه.

صلاح الدين... والشباب الحالي

أما صلاح الدين، أبان شبابه، فكان يقضى وقت فراغه في الرياضة مثله مثل عامة الشباب. فقد كان يمارس لعبة كرة القدم. نعم، كان يلعب الكرة مثلكم أيها الشباب فقد كانت هذه هوايته كما لكم هواية من الهوايات وتمارسون رياضة من الرياضات. ولا تفاجئوا لمعرفة أن صلاح الدين كان يشارك في دوري الكرة حتى أنه برع في تلك الرياضة وكان عضوا بارزا في أشهر فرقها. في ذلك العصر كان الممارسون لهذه الرياضة يلعبون الكرة وهم علي ظهر الجواد، تماما كما هو الحال بالنسبة للعبة الـ **Polo** التي تمارس بالهند وباكستان في وقتنا الحالي. ولم يحقق صلاح الدين انتصاراته بالنوم طوال ساعات النهار أو بالانقطاع عن الدنيا لحفظ آيات القرآن والأحاديث النبوية الشريفة. صحيح أن صلاح الدين كان حافظا للقرآن الكريم، كما تعلم الأحاديث على أيدي أساتذته، لكنه في ذات الوقت كان يمارس

الرياضة. وبطبيعة الحال كان لصلاح الدين أصدقاء مقربون يلجأ إليهم، يستفتيهم فيفتوه، فقد حدث وأن شعر مرة كما يشعر حديثو الالتزام بالدين عندما يقل ورعهم وخشوعهم في مناسكهم التعبدية. فبعد أن يكون أحدهم قد تقرب إلى الله، يدرك فجأة أنه ابتعد عنه. فنجد صلاح الدين يمر بأزمة نفسية وهو في السابعة عشر من عمره حتى أنه يسأل عمه إذا كان ما يشعر به من ضيق يعتبر علامة ايجابية أم سلبية.

وليكن الأمر واضحا ، لم يكن صلاح الدين أكثر تعبدا من الصحابة رضوان الله عليهم ولا من السلف الصالح رحمهم الله، وإنما قائدا مسلما جاء بعد أكثر من خمسمائة عام من وفاة الرسول ﷺ. إذن، فما زال بالإمكان إعادة الأمور إلى نصابها؟! ومهما تدهور بنا الحال، فما زال بإمكاننا استعادة الوضع الذي كانت عليه الأمة أبان عصر الصحابة ثم السلف الصالح.

وفى الواقع، فإن للشباب نصيب الأسد من الخطاب الموجه إليهم من خلال هذا الكتاب حيث إنهم المعنيون بالعمل على نهضة الأمة من جديد، وعسى أن يبرز منهم من يعيد إلينا المسجد الأقصى وأن يحرر كل أراضى الإسلام المغتصبة حاليا.

التربية الفاضلة... الاختيار الحاسم

ومع ذلك، فإن خطابنا هذا لا يقتصر على الشباب، وإنما يخاطب كل أم وكل أب. نحن، كآباء وأمهات، هل فعلا نحن متبعون لأسس سليمة لتربية أبنائنا؟ هل نحن حريصون على غرس القيم فيهم؟ هل لدينا القدرة على تحفيزهم لتحقيق أهداف سامية تصل بهم إلى درجات عالية؟ ما هي آمالنا من تربيتنا لأبنائنا؟ هل هي محدودة بحلقات الدورة الحياتية الشائعة من إلحاق الأبناء بالمدارس، والحرص على تخرجهم الجامعي، ثم ترقب التحاقهم بالعمل وزواجهم وتهنئتهم عند الإنجاب؟ هل هذه هي كل الطموحات التي نصبو أن يحققوها في حياتهم؟

ولكن كانت لصلاح الدين أهداف مختلفة. فماذا كانت أهدافه بالتحديد؟ وكيف وجدت طريقها إلى قلبه؟ وكيف تمكنت والدته على وجه الخصوص من غرسها في نفسه؟ الأسئلة كثيرة، فلا بد إذن أن تحمل الأبواب المخصصة في هذا الكتاب لإلقاء الضوء على نشأة صلاح الدين العديد من تفاصيل الإجابات المرجوة.

وبناء على ما تقدم فالدعوة قائمة للآباء والأمهات حتى يتعرفوا على النقاط الخمس الرئيسة الواجب غرسها في الأبناء، والتي تؤدى إلى تنشئتهم النشأة السليمة. ومن الأحرى أن يكون المربون لأولادهم على علم بوسائل التربية السليمة التي من شأنها أن تولد لدى أبنائهم الاهتمامات النافعة، وتغذيهم بالقدوة الحسنة، وتنمى مهاراتهم وتزيد من قدرتهم على التفكير الإيجابي، وتعينهم تدريجيا على ما هو مطلوب حاليا من تحمل المسئولية. وهناك أيضا الحاجة الماسة إلى التأكد من أن أولياء الأمور أنفسهم، وأولادهم كذلك، بإمكانهم إقامة علاقات سليمة.

أيها الآباء والأمهات، إن مسئوليتكم تشمل، ضمن ما تشمله، بذل هذا الجهد لأن القضية لا تلقى بحملها على الشباب وحدهم، وإنما هي قضية أسرة متكاملة تستطيع أن تنجح في تربية أبنائها وإفراز شخصية كشخصية صلاح الدين الأيوبي.

وعلى سبيل المثال، فهل لدى كل أم من الأمهات الإدراك الحقيقي لقيمة القصة التي تروى للطفل قبل النوم؟ لقد توصل علماء النفس لحقيقة علمية ثابتة مؤداها أن أكثر شيء يستقر في عقلية ونفسية الطفل هو آخر شيء يصل إلى مسامعه قبل النوم. ولذا نجد والدة صلاح الدين تروى له القصص متى يحين ميعاد نومه. فهل أنتن، يا أمهات اليوم تميزن بين ما يروى لطفل السنتين، وما يروى له عند الأربعة، ثم عند الستة؟ وما هي الشخصيات التي تردن إبرازها في نفوس أبنائكن؟ هل هو قتيبة ابن مسلم الباهلى، أم عقبة بن نافع؟ أم هم الأميرة والأقزام السبعة، وميكى وبندق وما

يلقى إلينا به حاليا؟ ألم يحن الأوان بعد أن تأخذن في الاعتبار نوعية القصة التي كانت أم صلاح الدين تغرسها في نفسيته، وأن تتعلمن دور هذه الأم في تربية ابنها؟

وهل أنتم يا آباء، يا مسئولون، يا رعاة الأسرة ويا رعاة الأمة، ألم تعدوا العدة للحظة وقوفكم بين يدي المولى عز وجل وسؤاله لكم عن تنشئتكم لأبنائكم ورعايتكم لهم؟ إلا تشتاقون إلى التميز في تلك اللحظة؟ ألا تبغون الجزاء الحسن؟ ألا تقدرون قيمة أن يشار إليكم بعبارات مثل " هذا والد صلاح الدين الأيوبي" أو" هذا جد صلاح الدين الأيوبي"؟

وقبل الانتقال إلى النقطة التالية، فمن المهم بمكان أن يستقر الكلام السابق في قلوبكم فتعم الفائدة نظرا لحاجتنا الكبيرة إلى تنفيذ ما سبقت الإشارة إليه وإلى ما يلي.

القدوة وتأثيرها في تكوين شخصية صلاح الدين المتكاملة

إن شخصية صلاح الدين لم تمت بموته، فهي شخصية إسلامية من الممكن تكرارها مرة ومرات، وكما برز قائد قاد الأمة وانتصر لها، فمن الممكن أن يبرز أفراد كثيرون لو انتهجنا نفس النهج وسرنا على نفس المسار الذي سار عليه صلاح الدين الأيوبي. تميزت شخصية صلاح الدين بتكاملها. ولذلك أكرر سؤالي على الشباب " ما هي اهتماماتكم؟ أترغبون حقا في معرفة اهتمامات صلاح الدين حتى تشرعون في اتباعها؟ فإذا أردتم تفنيد اهتماماتكم الحالية فما عليكم إلا أن تسترجعوا بأذهانكم نوعية البرامج التي تشاهدونها بالتليفزيون، والصفحات الخاصة التي تسارعون إلى قراءتها بالصحف، والمواضيع المتداولة خلال حواراتكم مع أصدقائكم.

أتريدون فعلا التعرف على كيفية سير الأمور في عصر صلاح الدين، وما مدى تأثير شخصية صلاح الدين في الأمة ككل؟ إذن فلنواصل معا الاهتمام بالقدوة في تشكيل شخصية الإنسان، وليسأل كل منا نفسه " من هو قدوتي؟ ما هي الشخصية التي أضعها نصب عيني في كل تصرف من تصرفاتي؟ ". والعكس صحيح، فمن الممكن أن يتعرف كل منا على قدوته من خلال مراجعته لأسلوب تصرفاته وأفعاله. وعلى سبيل المثال، لو سألت أي مسلم " من قدوتك ؟ " ، فسريعا ما تنطلق الإجابة " قدوتي رسول الله ﷺ " ، و طالما أن للحديث خلفية دينية. لكن عند الرجوع إلى حقيقة ما يتم في المنزل، في الشارع، في العمل، في أي مكان، فمن ذا الذي تتخذه قدوة عند تصرفك في مختلف المواقف؟ من الشخص الذي تتبع أسلوب تعامله مع الناس، حديثه، أفعاله؟ من هو قدوتك بالفعل؟ لا شك أن الإجابة على هذه الأسئلة سوف تحدد شخصيتك وأهدافك في حياتك. ومن هنا نعود إلى صلاح الدين وقدوته في الحياة. بالطبع، كان الرسول ﷺ خير قدوة لصلاح الدين. ومن أكثر ما أخذ القائد المسلم عن النبي الكريم هو قيام الليل، فإنه لم يترك هذا النسك التعبدي مهما يكن قد أصابه من تعب أو جهد أثناء النهار، فكان يسجد لله ليلا وينكسر له، ولو فاته نفل الليل تنفل في الضحى.

وفى حقيقة الأمر، فقد تأثر صلاح الدين أيضا بمجموعة من القدوة المعاصرة له ومن أهمها نور الدين محمود الذي تميز بتقواه ونقائه. ولما كان صلاح الدين مقربا لنور الدين، فقد تعلم منه الكثير. وبالتأكيد كان أيضا لشخصية عماد الدين زنكي، والد نور الدين محمود، أكبر الأثر في نفسية صلاح الدين، فقد اتخذه مثالا للتضحية والجهاد في سبيل الله حتى ولو اضطر إلى مواجهة بعض الظروف القاسية منفردا. ولا نغفل دور نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، والذي أخذ عنه صلاح الدين ترجمة الأقوال إلى أفعال. هذا بالإضافة إلى أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين.

أما يا شباب هذه الأيام، فمن قدوتكم؟ هل هو مجرد لاعب كرة يباع بالملايين؟ أم ممثل يؤدى دوره في فيلم متقاضيا الآلاف المؤلفة؟ أم هو المظهر الذي يظهر من خلاله هذا اللاعب أو ذلك الممثل؟ إنما القدوة الحقيقية هي القدوة التربوية في المقام الأول. ولذلك ينبغي مراجعة تصرفاتنا حتى يعرف كل منا الأساس الذي تقوم عليه هذه التصرفات وتلك القدوة التي نتبعها في حياتنا.

صلاح الدين... قدوة الغرب

قد تكون من دواعي الدهشة أن شخصية صلاح الدين الأيوبي مازالت عالقة حتى وقتنا هذا بأذهان الأشخاص الفاعلين في الحياة الغربية والمصير الأوروبي. فهل لكم أن تتخيلوا أن اللورد اللينبى، وهو لورد إنجليزي، دخل بيت المقدس عام ١٩١٧ ليعبر عن مشاعره بالجملة التي لا تخلو من الغرابة " اليوم انتهت الحروب الصليبية " . أليس غريبا أن يظل هذا الرجل متعلقا بذاكرة الحروب الصليبية التي وضعت أوزارها منذ أكثر من ثمانمائة عام حتى أنه تلفظ بهذه الجملة حال دخوله بيت المقدس في مطلع القرن العشرين؟ هل هذا الأمر مجرد حدث فردى؟ أو إنه قول صدر عن رجل عسكري ملم بالأحداث التاريخية؟

الإجابة على تلك الأسئلة احتاجت إلى ثلاثة أعوام عندما دخل دمشق عام ١٩٢٠ جنرال فرنسي هو الجنرال جيرار، أبان وقوع سوريا تحت الانتداب الفرنسي. وتأتى المفاجأة مدوية هذه المرة إذ أنها تكمن في طبيعة المكان الذي أسرع ذلك الرجل الحربي الفرنسي إلى زيارته. فهل كان مشتاقا لمشاهدة جبال دمشق، أو أوديتها، أو سهولها؟ أم أنه بحكم طبيعة عمله هرع إلى تفقد المعسكرات الحربية؟ كلا، لم يدر أي من ذلك بخلد هذا الرجل الذي طلب على عجل أن يأخذوه إلى قبر صلاح الدين. وكأنه أراد أن يقضى على أي داع من دواعي الدهشة حين وقف أمام قبر القائد المسلم فخرجت من فمه جملة، رغم الحسرة التي تولدها في القلوب، إلا

أننا في أمس الحاجة للاستفادة من كلماته " ها قد عدنا يا صلاح الدين، فهل من صلاح؟ ". لقد خاطب هذا اللورد الفرنسي صلاح الدين الأيوبي في قبره ليخبره أن كل ما بذله من عطاء في عصر مضى، بالإضافة إلى مشاعر العزة للأمة والدروس المستفادة، كل ذلك ذهب أدراج الرياح، غير أن المستفيد الوحيد منه كان الغرب، في حين أن المسلمين قد أهدروا تاريخهم. لقد أراد أن يبرهن أن الغرب استفاد وتعلم من صلاح الدين حتى عرفوا بالضبط ما ينبغي عمله لكسر أمة الإسلام وهزيمتها وإعادة الاستحواذ على الأرض التي طردهم منها صلاح الدين منذ ثمانية قرون.

الإخلاص لله تعالى ... مفتاح الانتصار

لقد كانت الجملة التي تلفظ بها ذلك اللورد الفرنسي بمثابة الدافع القوى للعودة إلى كتب التاريخ التي أكدت أن حالة التفكك التي نعانى منها كمسلمين حاليا هي بالضبط التي كانت سائدة قبيل سطوع نجم صلاح الدين، بل إن الحالة أيامها كانت أسوأ من الآن. ولذلك، فمن الأهمية بمكان استعادة بعض الحقائق التاريخية، ليس بغرض الإحباط، ولكن على العكس من ذلك، لإعطاء الأمل. وسوف يدرك القارئ مدى إمكانية تحقيق ذلك عند تعرفه على الأدوات التي سوف تمكننا من النهوض من جديد، وعندها تثمر التربية السليمة بإخراج شباب مهيأ للعمل لدينه. ومهما تردى بنا الحال من ضعف، إلا أنه لابد لنا من النهوض والانتصار مرة أخرى على أيدي رجال ينتمون لهذا الدين، ولسوف ينتصرون كما انتصر صلاح الدين الأيوبي!

ولعله من الضروري التوضيح بأن أي شخصية تاريخية لابد أنها كانت عبارة عن جزء من منظومة كبيرة. وقصة صلاح الدين الأيوبي خير مثال على ذلك، فقد استلم الراية من مجموعة من المسلمين العاملين لدينهم مثل نور الدين محمود.

وللتعرف على مدى قوة شخصية ذلك الرجل وتأثيرها على الصليبيين الذين اعترفوا له بالتقوى بالرغم أنهم على غير ملته، فلنأخذ في الاعتبار أن المخابرات الحربية الصليبية اكتشفت أن سر انتصار ذلك القائد المسلم كان يكمن في ركعات الليل التي كان يسجد فيها لله تعالى، رافعا يديه يدعو ربه. لقد كان ذلك هو السلاح الحقيقي لنور الدين محمود، فما انتصر على الصليبيين بكثرة العدة ولا العتاد، وإنما بسره مع الله تبارك وتعالى. ولسوف نعرض لهذه الشخصية في أحد الأبواب.

كما يلزم الأمر الحديث عن شخصية عماد الدين زنكي لنعرف كيف كان لهجوم القائد المسلم على الرّها رد فعل جعلت الأمير الصليبي يطلب الاستسلام فجرى بين الرجلين الحوار التالي:

"ما هي شروطك يا عماد الدين؟

- شروطي أن أسترد كل الأراضي التي تحت أيديكم.

- أنت تعلم جيدا أن ما تطلبه خارج حدود مقدرتي فلست سوى أمير الإمارة غير ذات بال.

- ولكنه في متناول أيدينا، إنما المسألة مسألة وقت، ليس إلا."

فانظر كيف كان يقين هؤلاء الأفراد المحيطين بصلاح الدين الأيوبي. ولذلك فإن الانتصارات التي حققها ذلك القائد المسلم ترجع إلى منظومة من الأشخاص وليس إلى شخصه منفردا. وبالتالي فلا ينبغي أن يكون دور صلاح الدين هو وحده الدور المستهدف من قراء هذا الكتاب، وإنما هناك عدة أدوار ينجذب إليها كل أب، كل أم، كل معلم، كل معلمة، كل مشترك في تربية النشء، حتى في تدريبهم رياضيا. أيا كان موقعك فهو مفيد طالما تنوى اتباع الأسس السليمة للتربية.

إن للإخلاص أمثلة عديدة في سيرة صلاح الدين الأيوبي ولكن أصحاب كل هذه الأمثلة يشتركون في رغبتهم في العمل لأهداف عليا ترضى الله سبحانه وتعالى، وليس لكى تذكر أسماؤهم بين الناس.

وعلى سبيل المثال لا الحصر هناك قصة الشاب الدمشقي، وهو أحد الشباب الذين تعلموا من صلاح الدين كيف يكون الإخلاص. وهل من قدوة معاصرة في ذلك الوقت خير من صلاح الدين الذي أمضى سبعة وعشرين عاما على ظهر جواده لم يكن له فيها مأوى سوى الخيمة المتنقلة رغم أن القصور كلها كانت مفتوحة أمامه. وما كان كل ذلك الجد والتفاني إلا ابتغاء لمرضاة الله عز وجل. كان من الطبيعي إذن أن يقتدى به الشاب الدمشقي الذي أدرك أنه كانت هناك أزمة حربية عبارة عن أبراج شيدت في إنجلترا وأتى بها الصليبيون عالية، قوية، لا تؤثر فيها النيران. ولكون هذا الشاب كيميائيا، فكان معنيا بالتعامل مع الأخشاب المصنوعة منها الأبراج. وظل طيلة ثمانية أشهر يدرس في معمله الخواص الكيميائية لتلك النوعية من الأخشاب، بما في ذلك من إرهاق وسهر وإنفاق مادي. وبعد هذه الأشهر الثمانية، أسرع إلى معسكر صلاح الدين حول عكا، وطلب مقابلته، وقدم له السلاح الذي استخدمه صلاح الدين فيما بعد لتدمير هذه الأبراج. وانتهت المعارك بانتصار صلاح الدين الذي أراد مكافأة ذلك الشاب الدمشقي. وجاء الشاب يشق طريقه وسط الجموع التي أنبأته بتكريم صلاح الدين له. فما كان من هذا الشخص المخلص إلا أن قال لصلاح الدين عندما وقف بين يديه " ما صنعت ذلك السلاح من أجلك، فما أنتظر أجر منك. وإنما صنعته لله تبارك وتعالى، وإني انتظر أجرى من الله تعالى يوم القيامة ". وبالطبع لم يكن ذلك الشاب أكثر تعبدا من الصحابة أو السلف الصالح، وإنما كان منتميا إلى مجتمع في حالة غفلة شديدة ثم أفاق من غفلته وأبرز تلك النوعية من المخلصين. إذن، فالأمر لا يبدو بعيدا على أمتنا حاليا، حال ارتقاء أوضاعها، أن تخرج منها شباباً على ذلك النهج.

مثال آخر للإخلاص يطل علينا من نافذة الماضي المجيد، وهو يتمثل في شاب مسلم آخر اسمه عيسى العوام... نعم، لا تندهشوا، كان عيسى العوام شابا مسلما ولم يكن نصرانيا كما صوره لنا أحد الأفلام السينمائية. وبالقطع لا يستقى التاريخ من أفلام ولا مسلسلات! ولم تكمن قيمة ذلك الشاب المسلم في براعته في السباحة وإنما في قلبه. لقد تم تكليفه بمهمة عبارة عن توصيل أمانة إلى أهل عكا، فربط على بطنه حزام يحتوى على أربعة آلاف دينار ذهبية، وكان مطلوبا منه المرور ما بين سفن الأسطول الإنجليزي حتى يصل إلى أسوار عكا. وأثناء سباحته أصيب بسهم معاد فمات. بالطبع، كان الناس في عكا ينتظرون الأموال، فبدأت الأخبار ترد إلى صلاح الدين أن عيسى العوام لم يصل إلى عكا. وطال الانتظار... يوم... اثنين... ثلاثة... وفى اليوم الرابع تم العثور على جثة عيسى العوام حيث ألقاها البحر على ضفافه. وللدهشة الكبيرة، وجد الناس الحزام ثابت في مكانه، ففتحوه ووجدوا ما كان به من أموال. ولنتعظ من هذه العبرة، فبعد موت عيسى العوام، يقدر رب العالمين ويأمر البحر أن يلفظ عيسى العوام إلى ضفافه. ولكم أن تتخيلوا قيمة هذا الشخص عند الله حتى أنه عز وجل جعله يؤدى الأمانة التي أؤتمن عليها حتى بعد موته.

وفى واقع الأمر، هذا هو المثال الذي أطمح أن يصل شبابنا إليه، فمازال الأمل يراودني أن يشعر الشباب بعد قراءته للعشرين بابا التي يتكون منها هذا الكتاب بأن القلوب بدأت تتحرك في اتجاه تكوين فكرة ثابتة وهدف ثابت في حياتنا، إلا وهو الإقدام على خدمة الأمة على أمل الوصول بها إلى مرحلة نشعر فيها بالعز من جديد وبأنه في مقدورنا النهوض مرة أخرى كأي مارد ينطلق في أي وقت من الأوقات. والعالم بأسره في حالة انتظار لنهو ض المارد الإسلامي من جديد حتى أن أرنولد توينبى، المؤرخ الغربي والكاتب يقول إن الصحوة الإسلامية غافلة وعلينا أن نزيد غفلتها وإلا فالمارد الإسلامي سيقوم ولن نستطيع أن نقف أمامه. ولذا فنحن في انتظار الزلزال... مثل ما حدث بحطين، لأن ما استخدمه المستشرقون في كتبهم

للتعبير عن ذلك الحدث المهيب كان لفظ" الزلزال " وليس " حطين " حيث كان زلزالا بالفعل، زلزل كيان أوروبا بأسره حتى وصلت مسامع الأمور هناك إلى أكبر كبير وأصغر صغير.

أحمد الله تبارك وتعالى أنه سخرني في تقديم شخصية صلاح الدين التي تثير في نفسي شجوناً وأفراحاً وإحساساً بأننا في أمس الحاجة لتعلم الكثير منها. ومن ثم فإني أهديها لكل أفراد الأمة، الوزير فيهم والخفير، وذلك لأن صلاح الدين هو ذلك الشخص الذي وصلت مسامعه إلى مشارق الأرض ومغاربها، وهو الذي رصد من أجل القضاء عليه عشرة بالمائة من الدخل القومي الأوروبي. وكمثال من أمثلة إخلاص هذا الرجل، أسوق إليكم ما حدث بعد وفاته وفتحت خزانته الشخصية فلم يجدوا بها، بدلا من الجواهر والماس والنقود المتوقع وجودها، سوى سبعة وثلاثين درهما ناصرية، أي ما لا يزيد عن جنيه مصري واحد. كان ذلك كل إرث صلاح الدين المالي، أما إرثه الحقيقي فهو ما تركه صلاح الدين الأيوبي للأمة ككل. ولقد تفاعل الشاعر مع شخصية صلاح الدين حيث يقول:

هل من صلاح يعيد السيف في يدنا أو تبتروها فقد شلت أيادينا

الحق يقال، هناك شخصيات توفى أصحابها منذ أمد طويل ولكن الإنسان يشعر بقشعريرة عند ذكرها كما لو كانت حية بيننا. وهناك، في المقابل، شخصيات معاصرة يتم ذكرها فتكون سببا لقسوة القلب والابتعاد عن الطريق القويم.